

البعد التداولي لآلية التضمين النحوي في الحديث النبوي الشريف

The pragmatic dimension of the mechanism of the grammatical embedding in the Hadith of the Prophet

د. عادل قيطوني¹

جامعة الإخوة منتوري قسنطينة 1

adel.guitoni@umc.edu.dz

تاريخ الوصول 2023/11/04 القبول 2024/01/22 النشر على الخط 2024/03/15

Received 04/11/2023 Accepted 22/01/2024 Published online 15/03/2024

ملخص:

تُعد آلية التضمين النحوي من آليات التأويل النحوي التي تَوَسَّلَهَا النحاة في محاولة إرجاع النص المخالف للقاعدة النحوية إلى سلطة هذه القاعدة، غير أنهم أهملوا في الكثير من تحليلاتهم البعد التداولي الذي حمل المتكلم على العدول عن سُنن لغته وقوانينها، مكتفين بالكفاءة اللسانية في العملية التأويلية والتي تسمح لهم باكتشاف الخلل المرتكب من طرف المرسل على المستوى التركيبي متسلحين بمعارف معيارية يحتكمون إليها في معالجة خطابات المرسل، وسأحاول في هذه الورقة البحثية والتي وسمتها بـ (البعد التداولي لآلية التضمين النحوي في الحديث النبوي الشريف) تجاوز مجال اشتغال الكفاءة اللسانية لآلية التضمين النحوي لدى النحاة في العملية التأويلية والبحث عن البعد التداولي في المجال الخارج لِسَانِيّ الذي سيسمح لنا الكشف عن مضامين خطابات النبي صلى الله عليه وسلم ومقاصده.

الكلمات المفتاحية: التضمين النحوي؛ البعد التداولي؛ الكفاءة اللسانية؛ الكفاءة التداولية.

Abstract:

The mechanism of grammatical embedding is a mechanism of grammatical interpretation conveyed by grammarians to render the text that breaks the grammatical rule to the authority of that rule, but in many of their analyses they have neglected the pragmatic dimension that has driven the speaker to change the norms and rules of the language, contenting themselves with the linguistic capacity in the pragmatic mechanism which enables them to explore the error committed by the sender at the synthetic level, arming themselves with the standard knowledge to which they refer in order to treat the sender's discourse. In this research paper entitled «The pragmatic dimension of the mechanism of the grammatical embedding in the Hadith of the Prophet» I will try to go beyond the domain of linguistic competence of the mechanism of grammatical embedding and look for the grammatical dimension in the extralinguistic domain which allows us to explore the contents and purposes of prophetic discourses.

Keywords: Grammatical embedding . Pragmatic dimension ; Linguistic competence ; Pragmatic competence.

¹ - المؤلف المراسل: عادل قيطوني البريد المهني: adel.guitoni@umc.edu.dz

1. مقدمة:

لقد مرّ الفكر النحوي العربي في بناء قواعد النحو بمرحلتين هامتين: ففي المرحلة الأولى نجد النحاة قد انطلقوا في التقعيد النحوي من الواقع اللغوي في عصر الاستشهاد متوسّلين منهجَي الوصف والاستقراء في جمع المادة اللغوية والتأسيس لقواعد النحو، ولما أتموا بناء هذه القواعد جاءت المرحلة الثانية التي أعادوا فيها عرض النصوص اللغوية الفصيحة على القواعد النحوية التي توصلوا إليها، فما وافق البناء التركيبي لهذه النصوص قواعد النحو قبلوه وما خالفها اضطروا إلى تأويله للجمع بين النص اللغوي الفصيح والقاعدة النحوية المتوصل إليها، وإن المتتبع لأساليب العرب في كلامها يجدها قد خرقت العديد من قواعد اللغة على المستوى التركيبي وعدلت على ما أسس له النحاة من قوانين صارمة تحكم هذا المستوى، وقد مارس الكثير من مستعملي اللغة هذا الخرق في كلامهم العادي ومارسه أيضا الأدباء والشعراء في إبداعاتهم، ويمكن تفسير هذا العدول إلى إحساس المتكلم في بعض المواقف التواصلية أو المبدع في فيض دَفَقَةٍ شعورية مُنتِجة لجنس أدبي إلى قصور قواعد النحو عن التعبير عما يختلج في النفس، وأنها قيدٌ حال دون إشباع رغبته النفسية في تبليغ قصده وإيصال غرضه للمتلقي، لذلك نجده وبكل عفوية يلجأ إلى خرق هذه القواعد والعدول عن هذه القوانين التي أرساها النحاة إشباعاً لرغبته النفسية وإكمالاً للمشهد الإبداعي.

إن التزام الفكر النحوي العربي بأصول الصنعة النحوية وجعلها منطلقاً لمعالجة الكثير من النصوص اللغوية الفصيحة فرض على النحاة ضرورة اللجوء إلى آلية التأويل النحوي لمعالجة هذه النصوص، وتُعد آلية التضمين النحوي من آليات التأويل النحوي التي لجأ إليها النحاة في محاولة منهم لإعادة صياغة النصوص اللغوية المخالفة في تركيبها للقواعد النحوية وإنتاجها إنتاجاً جديداً يجعلها تتوافق في آخر الأمر مع هذه القواعد، وفي آلية التضمين يقوم العنصر الدلالي بمعالجة الخرق اللفظي للقاعدة النحوية في محاولة للتوفيق بينها وبين النص الفصيح.

لقد كان هدف النحاة من توسّل آلية التضمين النحوي محاولة إرجاع النص المخالف للقاعدة النحوية إلى سلطة هذه القاعدة، غير أنهم أهملوا في الكثير من تحليلاتهم البعد التداولي الذي حمل المتكلم على العدول عن سنن لغته وقوانينها، مكتفين بالكفاءة اللسانية في العملية التأويلية والتي تسمح لهم باكتشاف الخلل المرتكب من طرف المرسل على المستوى التركيبي متسلحين بمعارف معيارية يحتكمون إليها في معالجة خطابات المرسل.

وبناء على ما سبق سأحاول في هذه الورقة البحثية والتي وسمتها بـ (البعد التداولي لآلية التضمين النحوي في الحديث النبوي الشريف) تجاوز مجال اشتغال الكفاءة اللسانية لدى النحاة في العملية التأويلية لآلية التضمين النحوي والبحث عن البعد التداولي في المجال الخارج لساني الذي سيسمح لنا الكشف عن

مضامين المتكلم ومقاصده، متخيّرًا الحديث النبوي الشريف خطاباً عملياً وميداناً للبحث.

فما هي الأبعاد التداولية لآلية التضمين النحوي في الحديث النبوي الشريف ؟ وما مدى نجاعة الكفاءة التداولية لهذه الآلية في الكشف عن مضامين خطابات النبي صلى الله عليه وسلم ومقاصده ؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات سأبدأ أولاً بضبط الجهاز المفاهيمي للكلمات المفتاحية لعنوان هذه الورقة البحثية (التضمين النحوي، البعد التداولي).

2. مفهوم التضمن النحوي:

يعد التضمن النحوي من أبرز مظاهر التأويل النحوي التي وظّفها شراح الحديث في البحث عن معاني العديد من الأحاديث التي أشكلت عليهم في بنيتها التركيبية، فكثيرا ما يجدون في متن هذه الأحاديث أفعالا متعدية بنفسها إلى مفعول به وفي مواطن أخرى يجدونها متعدية بحرف الجر، ولا يمكن فضّ هذا الإشكال النحوي إلا بتوسُّل آلية التضمن النحوي حيث يقوم العنصر الدلالي بمعالجة هذا الخرق اللفظي للقاعدة النحوية الملزمة، والمتتبع لمفهوم هذه الآلية في الفكر النحوي العربي قديما وحديثا يجد اختلافا واضحا بين العلماء في تحديد الحيز الدلالي لمفهومها.

يقول إبراهيم السامرائي " والسيوطي في الأشباه والنظائر يورد أقوالا متضاربة تظهر بوضوح مدى حيرة الأقدمين إزاء الاستعمالات والأساليب، ومن أجل ذلك لم يتفقوا على حقيقة التضمن وطريقته.¹" ويمكن تلخيص آراء العلماء في تحديد مفهوم التضمن النحوي في ثلاثة أقوال:

القول الأول:

يرى أصحابه أن التضمن النحوي يكون في الأسماء والأفعال والحروف.

قال السيوطي: " التَّضْمِينُ وَهُوَ إِعْطَاءُ الشَّيْءِ مَعْنَى الشَّيْءِ وَيَكُونُ فِي الْحُرُوفِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَسْمَاءِ "² وقال الزركشي: " التَّضْمِينُ: وَهُوَ إِعْطَاءُ الشَّيْءِ مَعْنَى الشَّيْءِ وَتَارَةً يَكُونُ فِي الْأَسْمَاءِ وَفِي الْأَفْعَالِ وَفِي الْحُرُوفِ، فَأَمَّا فِي الْأَسْمَاءِ فَهُوَ أَنْ تُضَمَّنَ اسْمًا مَعْنَى اسْمٍ لِإِفَادَةِ مَعْنَى الْأَسْمَاءِ جَمِيعًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ) [الأعراف: 105] ضَمَّنَ حَقِيقٌ مَعْنَى حَرِيصٍ لِيُفِيدَ أَنَّهُ مُحَقِّقٌ بِقَوْلِ الْحَقِّ وَحَرِيصٌ عَلَيْهِ، وَأَمَّا الْأَفْعَالُ فَأَنْ تُضَمَّنَ فِعْلًا مَعْنَى فِعْلٍ آخَرَ وَيَكُونُ فِيهِ مَعْنَى الْفِعْلَيْنِ جَمِيعًا."³

وقال أبو البقاء الكفوي: " وَقَالَ بَعْضُهُم: التَّضْمِينُ إِيقَاعُ لَفْظٍ مَوْجَعٍ غَيْرِهِ لَتَضَمَّنَهُ مَعْنَاهُ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْمَجَازِ، وَلَا اخْتِصَاصَ لِلتَّضْمِينِ بِالْفِعْلِ، بَلْ يَجْرِي فِي الْإِسْمِ أَيْضًا... وجريانه في الحرف ظاهر"⁴ والواضح من خلال هذه التعريفات أن مفهوم التضمن عند هؤلاء العلماء يشمل كل أنواع الكلمة (الاسم والفعل والحرف).

القول الثاني

يرى أكثر الكوفيين جواز تعاقب المعاني على حروف الجر من باب التوسع فيكون التضمن حينئذ في الحرف ويبقى الفعل على معناه، ويطلقون على هذه الظاهرة اسم: نيابة حروف الجر بعضها عن بعض

1 - السامرائي، إبراهيم بن أحمد الراشد، فقه اللغة المقارن، دار العلم للملايين، بيروت، ط:3، 1983 م، ص 215.

2 - السيوطي، جلال الدين، الإتيان في علوم القرآن، تح: مركز الدراسات القرآنية، المملكة العربية السعودية، 1426 هـ، ج 4، ص 1526.

3 - الزركشي، بدر الدين البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط:1، 1376 هـ - 1957 م، ج 3، ص 383.

4 - أبو البقاء الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني الكليات، تح: عدنان درويش، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط:2، 1419 هـ - 1998 م، ص 266.

قال فاضل السامرائي " ذهب جمهور الكوفيين إلى أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض فقد تأتي (مِنْ) بمعنى (على) ... وقد تأتي (الباء) بمعنى (عن) ... ومذهب جمهور البصريين أن حروف الجر لا ينوب بعضها عن بعض، إلا شذوذاً أما قياساً فلا، وما أوهم ذلك فهو مؤول إما على التضمنين أو على المجاز.²

وأجاز المبرد تناوب حروف الجر بشرط تقاربها في المعنى فقال: " وحروف الخفض يبدل بعضها من بعض، إذا وقع الحرفان في معنى في بعض المواضع، قال الله جل ذكره: (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ) [طه: 71]، أي (على) ولكن الجذوع إذا أحاطت دخلت (في)، لأنها للوعاء، يقال: فلان في النخل أي قد أحاط به.¹ ثم يذكر بعض الشواهد القرآنية والشعرية على ذلك ويختم بقوله: " وهذا كثيرٌ جداً " دلالة على أن هذه الظاهرة الأسلوبية - في رأيه - كثيرة في كلام العرب. وتبعه في ذلك ابن سراج مؤكداً على ضرورة تقارب الحروف في المعنى، وإلا مُنِع ذلك " واعلم أن العرب تتسع فيها فتقيم بعضها مقام بعض إذا تقاربت المعاني فمن ذلك: الباء تقول: فلان بمكة وفي مكة، وإنما جازا معاً لأنك إذا قلت: فلان بموضع كذا وكذا، فقد خبرت عن اتصاله والتصاقه بذلك الموضع، وإذا قلت: في موضع كذا فقد خبرت بـ (في) عن احتوائه إياه وإحاطته به، فإذا تقارب الحرفان فإن هذا التقارب يصلح للمُعاقبة وإذا تباين معناهما لم يجوز، ألا ترى أن رجلاً لو قال: مررت في زيد أو: كتبت إلى القلم، لم يكن هذا يلتبس به، فهذا حقيقة تعاقب حروف الخفض، فمتى لم يتقارب المعنى لم يجوز.²

القول الثالث:

ذهب جمهور البصريين إلى القول بأن التضمنين النحوي يكون في الأفعال ويبقى حرف الجر على أصله. قال ابن هشام: " مذهب البصريين أن أحرف الجر لا ينوب بعضها عن بعض بقياس كما أن أحرف الجرّم وأحرف النصب كذلك وما أوهم ذلك فهو عندهم إمّا مؤول تأويلاً يقبله اللفظ كما قيل في (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ) [طه: 71] إنّ (في) ليست بمعنى (على) ولكن شبه المصلوب لتمكُّنه من الجذع بالخال في الشيء وإمّا على تضمنين الفعل معنى فعل يتعدّى بذلك الحرف.³

وقال ابن جني " اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدّى بحرف والآخر بآخر، فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيداناً بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر، فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه، وذلك كقول الله - عز اسمه -: (أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ) [البقرة: 187] وأنت لا تقول: رفثت

¹ - المبرد، محمد بن يزيد الكامل في اللغة والأدب، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط: 3، 1417 هـ - 1997، ج 2، ص 1000.

² - ابن سراج، أبو بكر محمد بن السري بن سهل، الأصول في النحو، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، ج 1، ص 414.

³ - ابن هشام الأنصاري، عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: عبد اللطيف محمد الخطيب، دار التراث العربي، بيروت، ط: 1، 1423 هـ، ج 2، ص 179.

إلى المرأة، وإنما تقول: رفثت بها أو معها، لكنّه لَمَّا كان الرفث هنا في معنى الإفضاء، وكنتَ تعدّي أفضيت بـ (إلى) كقولك: أفضيت إلى المرأة، جئت بـ (إلى) مع الرفث إيذاناً وإشعاراً أنه بمعناه.¹

وقال ابن القيم: " وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر، وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة بل يجعلون للفعل معنى مع الحرف ومعنى مع غيره فينظرون إلى الحرف وما يستدعي من الأفعال فيُشربون الفعل المتعدي به معناه هذه طريقة إمام الصناعة سيبويه رحمه الله تعالى وطريقة حُذّاق أصحابه يضْمِنون الفعل معنى الفعل لا يقيمون الحرف مقام الحرف وهذه قاعدة شريفة جلييلة المقدار تستدعي فطنة ولطافة في الذهن.²

وقد اجتهد علماء المجمع اللغوي بالقاهرة في بحث موضوع التضمنين النحوي وخلصوا إلى القرار الآتي: " التضمنين أن يؤدي فعل أو ما في معناه في التعبير مُؤدّي فعل آخر أو في معناه، فيُعطى حكمه في التعدية واللزوم، ومجمع اللغة العربية الملكي يرى أنه قياسي لا سماعي، بشروط ثلاثة: الأول: تحقق المناسبة بين الفعلين.

الثاني: وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر، ويؤمن معها اللبس.

الثالث: ملائمة التضمنين للذوق العربي.

ويوصي المجمع ألا يُلجأ إلى التضمنين إلا لغرض بلاغي³

والذي أراه أن الأصل في التضمنين يكون في الفعل ما أمكن إلى ذلك سبيلا، فإن تعدّر في تحليل تركيب ما القول بتضمنين فعل معنى فعل آخر جاز اللجوء إلى آلية التناوب بين الحروف مع مراعاة التقارب المعنوي بينها لأن وضع حرف مكان آخر تكمن وراءه أغراض بلاغية، ودلالات مقصودة، فليس من المعقول أن يوظف البليغ حرفا مكان حرف آخر، دون غرض دلالي يقصده، فهذا العدول عن مألوف استعمال حروف الجر باستخدام بعضها مكان بعض، عدول مقصود لغاية في نفس المتكلم، يريد إيصالها إلى المتلقي.

3. مفهوم البعد التداولي:

بعد التحول المفصلي الذي شهده الدرس اللساني المعاصر وتحول اهتمام الدارسين من لسانيات اللغة إلى لسانيات الكلام متجاوزين الدراسات السابقة ذات البعد البنيوي التي عكفت على مقارنة النصوص بعيدا عن سياقاتها الخارجية المنتجة لها باحثين عن مضامين هذه النصوص ومقاصد منتجها، ظهر البعد التداولي كمفهوم مركزي في حضن لسانيات الكلام، محاولا سد الفجوة التي تركتها اللسانيات البنيوية وربط اللغة بسياق استعمالها ومقاصد متكلميها ومضامين خطاباتهم، والبعد التداولي في حقيقته هو نتاج عملية تأويلية يُقبل عليها المتلقي باحثا عن المعاني الضمنية المستبطنة في خطاب المرسل، ولكي ينجح المتلقي في عملية بحثه هذه لابد أن يتسلح بثلاث كفاءات تأويلية، يمكن تفصيلها كالآتي:

¹ - ابن جني، أبو الفتح عثمان عثمان الخصائص، تح: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، دط، د ت، ج 2، ص 308.

² - ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بدائع الفوائد، تح: علي بن محمد العمران، إشراف بكر أبو زيد، دار علم الفوائد، د ط، د ت، ج 2، ص 223.

³ - ينظر: عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، مصر، ط: 3، د ت، ج 2، ص 587.

1.3 كفاءة تأويلية لسانية:

وتعد هذه الكفاءة كفاءةً قاعديةً ذات معارف لسانية وضعية بالنسبة للمرسل والمتلقي معا، إلا أن معارف هذه الكفاءة تُمثَّل بالنسبة إلى المرسل معارف تأسيسية في إنتاج خطابه، كلما عدل عنها إلا وعُدَّ عدوله هذا مؤشرا لسانيا لخلق موضوع للتأويل بالنسبة للمتلقي الذي يتوسَّل المعارف نفسها يحتكم إليها بنزعة معيارية في معالجة خطاب المرسل، لذا يجب على المتلقي (المؤوِّل) أن يكون عالما بنظام اللغة المستعملة من طرف المرسل خبيرا بالقواعد اللسانية التي تحكمها على مختلف مستوياتها: الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية، والمعجمية، فيجب عليه أن يعلم بأن لكل خاصية تنظيمية أو تطريزية معنى خاص، وأن لكل صيغة صرفية معيّنة معنى معيناً، وأن لكل وحدة صرفية دلالة معجمية، وأن تركيب هذه الوحدات يكون بحسب الأساليب، وكل أسلوب له خصائصه التي التي تجعله يعني ما لا يعنيه غيره، ويسمح تمكّن المتلقى من هذه الكفاءة اكتشاف الخرق الذي ارتكبه المرسل في أي مستوى

من مستويات اللغة، ويُعدُّ هذا الخرق مؤشرا لسانيا بالنسبة له لارتياح عملية التأويل.¹

2.3 كفاءة تأويلية تداولية:

وهي عبارة عن حصيلة المعارف غير اللسانية التي يمتلكها المؤوِّل مستنيرا بها في العملية التأويلية، وتتضافرها مع المعرفة اللسانية تأخذ العملية التأويلية مسارها الصحيح ويقترب المؤوِّل أكثر فأكثر من مضمون خطاب المرسل ومقاصده، ويمكن تقسيمها إلى قسمين:

القسم الأول: كفاءة سياقية حالية: ترتبط بعناصر غير لسانية تساعد المؤوِّل على اكتشاف مؤشرات أخرى للعملية التأويلية كالأنا والأنت وانطباعات المؤوِّل حول محيط التخاطب وتأثير هذا المحيط فيه، وكشخص الحضور وهيئاتها ومواقعها وسلوكها، وكالحدود الزمانية والمكانية التي أُنتج فيها الخطاب.

القسم الثاني: كفاءة موسوعية: وتُثَلَّ جملة المعارف السابقة والمكتسبات القبلية التي أفاد منها المؤوِّل من تجاربه الفردية أو الاجتماعية، وتتميز هذه المعارف بالتراكمية والتنامي لدى المؤوِّل ما دام يُعمل عقله بالتفكّر والتأمّل وما دام في حالة تفاعل مع أفراد مجتمعه، فالمعطيات المعرفية للكفاءة الموسوعية في حقيقتها هي عبارة عن تراكم للمعطيات المعرفية التي توفرها الكفاءة السياقية.²

3.3 كفاءة استدلالية:

عادة ما يتوقف اشتغال الكفاءتين السابقتين (اللسانية، والتداولية) عند المتلقي في إبراز غير الملائم في لفظه ومعناه من خطابات المرسل، وللانتقال من عدم الملاءمة إلى الملاءمة وصولا إلى مقاصد المتكلم وهو الهدف من العملية التأويلية لا بد من إجراء عمليات استدلالية يربط فيها المتلقي بين خطابات المرسل وما توفره له معارفه اللسانية والتداولية من مؤشرات تأويلية ليصل في الأخير إلى مضامين الخطاب ومقاصده.

¹ - ينظر: حافظ إسماعيل علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط:2، 2014 م، ص 216، 217.

² - ينظر: حافظ إسماعيل علوي، المرجع نفسه، ص 217 - 219.

وعليه فالكفاءة الاستدلالية هي تلك القدرة على الاستدلال التي يجب أن يمتلكها المؤول في الربط بين خطاب المرسل وما وفرته له معارفه اللسانية والتداولية للوصول إلى المعنى المقصود، وباجتماع هذه الكفاءات في العقل التحليلي للمتلقى يمكنه ارتياد عملية التأويل لأي خطاب والوصول إلى المعنى المقصود.¹

وبعد هذا العرض النظري لمفهوم البعد التداولي وكفاءاته الثلاث سأقدم نماذج من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، محاولاً البحث عن البعد التداولي لآلية التضمنين النحوي التي كانت حاضرة في البنية التركيبية لهذه الأحاديث، وسأقسم مقاربتني إلى ثلاث مستويات تأويلية (التأويل اللساني، التأويل التداولي، التأويل الاستدلالي).

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَإِذَا صَلَّى قَائِمًا، فَصَلُّوا قِيَامًا، فَإِذَا رَكَعَ، فَارْكَعُوا وَإِذَا رَفَعَ، فَارْفَعُوا، وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، وَإِذَا صَلَّى قَائِمًا، فَصَلُّوا قِيَامًا، وَإِذَا صَلَّى جَالِسًا، فَصَلُّوا جُلُوسًا أَجْمَعُونَ.)²

- الشاهد: قوله صلى الله عليه وسلم: (سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ).

أولاً: التأويل اللساني

إن كفاءتنا اللسانية إزاء قوله صلى الله عليه وسلم: (سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ) تفيد بأن الملفوظ سليم في نظامه الصوتي ونظامه الصرفي، إلا أنه حدث له عدول في نظامه التركيبي إذ " الصَّحِيحُ أَنْ (سمع) لَا يَتَعَدَّى إِلَّا إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، وَالْفِعْلُ الْوَاقِعُ بَعْدَ الْمَفْعُولِ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، فَمَعْنَى (سَمِعْتَهُ يَقُولُ) أَي: سَمِعْتَهُ حَالِ قَوْلِهِ كَذَا، وَ(سَمِعْتَ حَدِيثَ فُلَانٍ) يُفِيدُ الْإِصْغَاءَ مَعَ الْإِذْرَاكِ"³، لكنه في الحديث تعدى بحرف الجر (اللام).

وقد أوّل النحاة وشرّح الأحاديث هذا التركيب بأن ضَمَّنَ الفعل (سمع) معنى الفعل (أجاب) لذلك تعدى بحرف الجر (اللام)، قال الكرماني " قوله (سمع) قيل: بمعنى (أجاب) بدليل استعماله (اللام) والمفعول محذوف، أي أجاب الله دعاء الحامدين. "⁴ ، وقال السيوطي: " (سمع الله لمن حمده) قَالَ الْعُلَمَاءُ مَعْنَى سَمِعَ هُنَا أَجَابَ وَمَعْنَاهُ أَنْ مَنْ حَمَدَ اللَّهَ تَعَالَى مَتَعَرِّضًا لثَوَابِهِ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ وَأَعْطَاهُ مَا تَعَرَّضَ لَهُ فَإِنَّا نَقُولُ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ لَتَحْصِيلِ ذَلِكَ "⁵

ثانياً: المستوى التداولي

لقد تَضَمَّنَ الفعل (سمع) في سياق الحديث معنى الفعل (أجاب) وكأن أصل الكلام (أجاب الله لمن

¹ - ينظر: حافظ إسماعيل علوي، المرجع نفسه، ص 219.

² - البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، صحيح البخاري، ، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: 1، 1422هـ، ج 1، ص 131.

³ - أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص 496.

⁴ - الكرماني، شمس الدين محمد بن علي، الكواكب الدراري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط: 2، 1401 هـ م، ج 2، ص 103.

⁵ - السيوطي، جلال الدين تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1389 هـ. 1969 م، ج 1، ص 74.

حمده)، وتُعَدُّ هذه العبارة الأخيرة مجرد تمثيل ذهني تصوري في الفكر النحوي العربي، بينما هي صورة منطقية في الفكر التداولي العرفاني، ولما ضَمَّن النبي صلى الله عليه وسلم لفظ (سمع) معنى (أجاب) فهو بذلك جمع بين داليتين: (السمع، والإجابة) وهو أقوى في مضمون الكلام من دلالة السماع لوحدها، إذ أن الجمع بين الداليتين فيه إشارة للمؤمنين الخاشعين في صلاتهم بأن الله إذا سمع قولهم وهم يحمّدونه أجاب دعاءهم، قال محمد بن فتوح المبروقي: "قَوْلُ الْمُصَلِّي (سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ) أَيِ تَقْبِلُ اللَّهُ مِنْهُ وَأَجَابَ حَمْدَهُ وَيَقَالُ: اسْمَعْ دُعَائِي أَيِ: أَجِبْ دُعَائِي لِأَنَّ غَرَضَ السَّائِلِ الْإِجَابَةَ وَالْقَبُولَ فَذَكَرَ مُرَادَهُ وَغَرَضَهُ بِاسْمِ غَيْرِهِ لِلإِشْرَاقِ الَّذِي بَيْنَ الْقَبُولِ وَالسَّمْعِ فَوَضَعَ السَّمْعَ مَوْضِعَ الْقَبُولِ وَالْإِجَابَةِ" ¹.

وقد ورد الفعل (سمع) من الناحية التداولية فعلا كلاميا إخباريا يؤكد فيه النبي صلى الله عليه وسلم بكل يقين استجابة الله عز وجل دعاء الحامدين له، لذلك أَمَرَ صلى الله عليه وسلم صحابته الكرام أن يقولوا بعد ذلك: (رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ) حتى يسمع الله حمدهم فيستجيب لهم، وأَمَرَهُ لهم من الناحية التداولية هو فعلٌ كلاميٌ توجيهيٌ والغرض الإنجازي منه حثُّ النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة على حمد الله عز وجل حمدا يليق بجلاله.

وتؤكد لنا كفاءتنا الموسوعية ذات المعارف الدينية بأن الله عز وجل عَهَدَ لكلِّ حامِدٍ داعٍ بيقين بأن يسمع دعوته ويستجيب له ومن ذلك قوله تعالى: ² هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ [آل عمران: 38] قال أبو حيان: " (إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) لَمَّا دَعَا رَبَّهُ بِأَنَّهُ يَهْبُ لَهُ وَلَدًا صَالِحًا، أَخْبَرَ بِأَنَّهُ تَعَالَى مُجِيبُ الدُّعَاءِ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى عَلَى السَّمَاعِ الْمَعْهُودِ، بَلْ مِثْلُ قَوْلِهِ: (سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ)، عَبَّرَ بِالسَّمَاعِ عَنِ الْإِجَابَةِ إِلَى الْمُقْصِدِ" ². وقال الرازي: "قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ أَنَّ يَسْمَعُ صَوْتَ الدُّعَاءِ فَذَلِكَ مَعْلُومٌ، بَلِ الْمُرَادُ مِنْهُ أَنَّ يُجِيبُ دُعَاءَهُ وَلَا يُجِيبُ رَجَاءَهُ، وَهُوَ كَقَوْلِ الْمُصَلِّينَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ، يُرِيدُونَ قَبُولَ حَمْدٍ مِنْ حَمْدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" ³.

وعليه فكفاءتنا الموسوعية ذات المعارف الدينية تبين لنا وجود علاقة دلالية منطقية ذات بعد عقدي بين الثنائية (دعاء، استجابة)، فالذي يدعو الله بصدق ويقين يستجيب الله له ويعطيه سُؤله، وتسهم هذه العلاقة الدلالية المنطقية في تحقيق الانسجام الدلالي على مستوى مضمون القول، ويُعد هذا الانسجام مظهرًا للمقبولية التي ستترك أثرًا تداوليًا يظهر في سلوك المتلقين (وهم جماعة المؤمنين) ويكون مسبقًا باعتقاد من طرف المتكلم (وهو الرسول صلى الله عليه وسلم)، أضف إلى ذلك أن الفعل (سمع) هو فعل كلامي إخباري الغرض منه جعل القول مطابقًا للعالم وشرطه صدق المتكلم، وإذا علمنا أن المتكلم هو الرسول صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق أيقنا بحصول الاقتناع والتصديق لدى جماعة المتلقين. كما يمكننا أن نلاحظ أثر حضور الافتراض المسبق التداولي في العملية التفاعلية بين الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام في نص هذا الحديث، وتفصيله كالاتي:

¹ - المبروقي، محمد بن فتوح تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، تح: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، مكتبة السنة - القاهرة - مصر، ط: 1، 1415 هـ. 1995 م، ص 299.

² - أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي، تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1، 1413 هـ. 1993 م، ج 2، ص 464.

³ - الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن، مفاتيح الغيب، د ت، دار الفكر، لبنان، بيروت، ط: 1، 1401 هـ - 1981 م، ج 8، ص 210.

- عند المتكلم: باعتبار منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم بين الصحابة وتصديقهم الجازم له في نقله للأحكام الشرعية، فهو رسول يوحى إليه رب العالمين، مُنَزَّهٌ عن الكذب واتباع الهوى.
 - عند المتلقي: وهم جماعة المؤمنين الذين بحكم إيمانهم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم يعلمون مسبقاً أن كل ما يقوله هو حقٌ وصدق لا ريب فيه.
- ويؤدي في المحصلة التوافق بين اعتقاد كلٍّ من المتكلم والمتلقي نجاح العملية التفاعلية في الخطاب والتي بدورها تُثمر الإفهام عند المتكلم والفهم والاقتران عند المتلقي.

ثالثاً: المستوى الاستدلالي

يمكننا الاستدلال على أن الفعل (سمع) ضَمَّنَ معنى الفعل (أجاب) من خلال القرينة اللسانية: وذلك أن الفعل سمع يتعدى بنفسه إلى المفعول به، فإذا تعدى له بحرف الجرّ (اللام) عُذَّ هذا الأخير قرينة لسانية دالة على البنية الضمنية للفعل (أجاب) وفق علاقة استلزامية (سمع الله عز وجل دعاء الحامدين المخلصين فأجاب دعوتهم)، قال الرازي " لِأَنَّ بَيْنَ السَّمْعِ وَبَيْنَ الْجَوَابَةِ نَوْعٌ مُلَازِمَةٌ، فَلِهَذَا السَّبَبِ يُقَامُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَقَامَ الْآخَرِ، فَقَوْلُنَا (سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ) أَيُّ أَجَابَ اللَّهُ، فَكَذَا هَاهُنَا قَوْلُهُ: (أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ) أَيُّ أَسْمَعْ تِلْكَ الدَّعْوَةَ " ¹

– قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ) ²

الشاهد : قوله صلى الله عليه وسلم (فأبردوا عن الصلاة) والصلاة المقصودة هنا هي صلاة الظهر.

أولاً: التأويل اللساني

لدينا الفعل (أبرد) مصدره الإبراد " وهو انكسار الوهج والحرّ وهو من الإبراد الدُّخُولُ فِي الْبَرْدِ " ³، والأصل في الفعل أبرد أنه لازم، نقول أبرد: دخل في البرد، إلا أنه في الحديث جاء متعدداً بحرف الجرّ (عن)، وقد أوّل شراح الحديث هذا العدول التركيبي بأن الفعل (أبرد) ضَمَّنَ معنى الفعل (تَأَخَّرَ) الذي يتعدى بحرف الجرّ (عن). قال القسطلاني: " ضَمَّنَ (أبردوا) معنى التأخر فعدي بـ (عن) أي إذا اشتد الحر فأخروا عن الصلاة مبردين أو أبردوا متأخرين عنها، وحقيقة التضمن أن يقصد بالفعل معناه الحقيقي مع فعل آخر يناسبه. " ⁴، وقال السندي: " قيل [عن الصلاة] مُتَعَلِّقَةٌ بـ (أبردوا) بتضمن معنى التَّأَخِيرِ وَلَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ الْمُضَافِ وَهُوَ الْوَقْتُ فَإِنَّ قُدْرَ مَعَ ذَلِكَ مَفْعُولُ أبردوا أعني بِالصَّلَاةِ فَالْمَعْنَى أَدْخَلُوهَا فِي الْبَرْدِ مُؤَخِّرِينَ إِيَّاهَا عَنْ وَقْتِهَا الْمُعْتَادِ وَإِنْ لَمْ يُقَدَّرْ لَهُ مَفْعُولٌ يَكُونُ الْمَعْنَى ادْخُلُوا أَنْتُمْ فِي الْبَرْدِ مُؤَخِّرِينَ إِيَّاهَا عَنْ وَقْتِهَا وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَم. " ⁵

¹ – الرازي، فخر الدين مفاتيح الغيب، ج 5، ص 265.

² – البخاري، صحيح البخاري، ج 1، ص 113.

³ – ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ط 1، د ت، ج 1، ص 248.

⁴ – القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، المطبعة الكبرى، مصر، ط: 7، 1323 هـ، ج 1، ص 486.

⁵ – السندي، نور الدين محمد بن عبد الهادي، حاشية السندي على سنن النسائي، مكتبة المطبوعات الإسلامية حلب، ط: 2، 1406 هـ، ج 1، ص 249.

ثانيا: التأويل التداولي

لقد تضمن الفعل (أبردوا) في الحديث الشريف معنى الفعل (تأخروا) أي أن أصل الكلام هو (تأخروا عن الصلاة مُبردين) وهذا تمثيل تصوري وصورة منطقية مجردة للملفوظ جئنا بها حتى يتلاءم والقاعدة النحوية، وقد ضمن النبي صلى الله عليه وسلم (أبردوا) معنى لفظ (تأخروا) ليجمع بين دالتي تضرمان مقصدين:

- المقصد الأول: مقصد تشريعي يُجيز فيه النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين تأخير صلاة الظهر عن أول وقتها عند الحر الشديد، قال ابن عبد البر " وَأَمَّا قَوْلُهُ: (فَإِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنِ الصَّلَاةِ) فَمَعْنَى الْإِبْرَادِ بِهَا تَأْخِيرُهَا عَنْ أَوَّلِ وَقْتِهَا حَتَّى يَزُولَ سَمُومُ الْهَاجِرَةِ لِأَنَّ الْوَقْتَ فِيهِ سَعَةٌ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ -"¹

- المقصد الآخر: وفيه بيان رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين إذ إنه في شدة الحر جَوَّزَ لهم تأخير صلاة الظهر حتى ينكسر وهج الحر رافة بهم وإشفاقا على حالهم.

وإذا استحضرنّا السياق الحالي لأسباب ورود الحديث واستعنا به في العملية التأويلية التداولية نجد أن أبا ذر رضي الله عنه قال: " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِي سَفَرٍ وَمَعَهُ بِلَالٌ فَأَرَادَ أَنْ يُقِيمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَبْرِدْ) ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ فَقَالَ: (أَبْرِدْ) ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ فَقَالَ: (أَبْرِدْ) ، ثَلَاثًا يَعْنِي فِي الظُّهْرِ حَتَّى رَأَيْنَا فِيَّ التَّلَوَّلَ ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: (إِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فِتْحِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوا عَنِ الصَّلَاةِ)."²

ومن خلال تفاصيل السياق الحالي للحديث نجد أن شدة الحر في ذلك اليوم تُثَبِّلُ افتراضا مسبقا شكّل خلفية التواصل الضرورية لنجاح العملية التبليغية لذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم يُعَيِّنُ الفعل الكلامي التوجيهي (أبرد) لبلال رضي الله عنه ويوظفه كوسيلة خطابية تُسهم في تقوية المنطوق لوضوح الفعل وسرعة استيعابه وليجعل بلالا يتصرف تصرفا ملائما محتوي التوجيه فيؤخّر إقامة الصلاة حتى يبرد الجو، كما نجده صلى الله عليه وسلم وظف التكرار كوسيلة ثانية في تقوية المنطوق، حيث كرّر الفعل (أبرد) ثلاث مرات، وبعد الانتهاء من الصلاة أعاد النبي فعله التوجيهي (أبردوا عن الصلاة) موسّعا دائرة المتلقين (المسلمين جميعا) ومؤسّسا لحُكْمٍ فقهي عملي وهو جواز تأخير صلاة الظهر إلى حدّ الإبراد في الأجواء الحارة.

ومما سبق يمكن القول إن هذه المعطيات السياقية كالاftراض المسبق (وهو شدة الحر) وكقصد النبي صلى الله عليه وسلم في تأخير الصلاة حتى ينكسر وهج الحر كفيلة بأن تسمح لنا بارتياذ عملية التأويل والقول بتضمنين الفعل (أبردوا) معنى الفعل (تأخروا) مما نتج عنه توسّع دلالي لمعنى الفعل (أبرد) فجمع بين دلالتَي الإبراد والتأخير، وقد ترك هذا التوسع الدلالي أثره

¹ - ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، الاستذكار، تح: سالم محمد عطا ومحمد علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1، 1421 هـ، ج 1، ص 98.

² - الطياليسي، سليمان بن داود مسند أبي داود الطياليسي، تح: محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، ط: 1، 1419 هـ. 1999 م، ج 1، ص 357.

التداولي في جماعة المتلقين لا سيما الفقهاء الذين عقدوا فصولاً في كتبهم الفقهية عن أحكام تأخير صلاة الظهر عن وقتها لشدة الحر.¹

ثالثاً: التأويل الاستدلالي

إن ما يدل على أن الفعل (أبرد) قد ضُمِّن معنى الفعل (تأخر) القرينتين الآتيتين:

- قرينة لسانية: يُعدّ حرف الجر (عن) قرينة لغوية دالة على وجود معنى فعل آخر متضمن في الفعل (أبرد) ذلك أن الفعل (أبرد) وفق القاعدة النحوية هو فعلٌ لازم غير متعديٍّ، إلى أنه في نص الحديث تعدّى بحرف الجر (عن) الأمر الذي يستدعي منا عملية تأويلية والبحث في البنية الضمنية له عن الفعل الذي يتلاءم وحرف الجر (عن) ويتلاءم أيضاً والمعنى العام لنص الحديث، وقد اجتمعت هذه الشروط في الفعل (تأخر) الذي يصلح من الناحية النحوية أن يتعدّى بحرف الجر (عن) ويكون معنى التركيب (تأخروا عن الصلاة مبردين).

- قرينة خارج لسانية: وهي سياق الحال الذي صاحب ورود نص الحديث إذ إن شدة الحر ووهجه سبب كافٍ جعل النبي صلى الله عليه وسلم يُجَوِّز تأخير صلاة الظهر إلى حدّ الإبراد رحمة بالمصلين ورأفة بهم وأدعى لهم في تحقيق ركن الخشوع في صلاتهم.

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ)².

- الشاهد: قوله: (يعود في الكفر)

أولاً: التأويل اللساني

تفيدنا كفاءتنا اللسانية أن الفعل (يعود) يتعدى إلى المفعول بحروف الجر (إلى) و(اللام) و(على) فنقول: عاد إليه، وله، وعليه، عوداً وعودة، أي رجع وارتد³، إلا أنه في هذا التركيب (يعود في الكفر) عدل عن هذا الأصل وتعدّى بحرف الجر (في).

وقد أوّل شراح الحديث هذا العدول بأن الفعل (يعود) ضُمِّن معنى الفعل (يستقر)، قال السيوطي: " قوله (أن يعود في الكفر) فإن قلت: المشهور عاد إليه معدّى بكلمة الانتهاء (إلى) لا بآلة الظرف [في]، قلت: قد ضُمِّن فيه معنى

¹ - ينظر: الجزيري، عبد الرحمن بن محمد عوض الفقه على المذاهب الأربعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 2، 1424 هـ، ج 1، ص 169.

² - البخاري، صحيح البخاري، ج 1، ص 12.

³ - ينظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط: 4، 1425 هـ. 2004 م، ص 634.

الاستقرار، كأنه قال: يعود مستقراً فيه¹، وقال البكري: "وعُدَى العود بـ (في) دون (إلى) لتضمُّنه معنى الاستقرار كأنه قيل ويستقر فيه"²

ثانياً: التأويل التداولي

يعدّ هذا الحديث ملفوظاً ذا نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، أي أنه من الناحية التداولية هو فعلٌ كلاميٌّ كاملٌ ينقسم إلى ثلاثة أفعال فرعية كالآتي:

- فعل القول: وهو نص الحديث بمستوياته اللسانية: المستوى الصوتي، والمستوى التركيبي، والمستوى الدلالي، ولقد استهل النبي صلى الله عليه وسلم حديثه هذا بفعل كلامي تقرير (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ) ليلفت انتباه الصحابة إليه، ثم حدّد لوجود هذه الحلاوة في قلب المؤمن ثلاثة شروط: أوّلاًها: تقديمه حب الله ورسوله على من سواهما، ثانيها: الإخلاص في حبه للناس، ثالثها: كُرْهُه العودة في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار.

- الفعل المتضمن في القول: وإذا تجاوزنا القوة الإنجازية المباشرة لهذا الفعل وهي الإخبار والتقريب إلى القوة الإنجازية غير المباشرة المستلزمة مقامياً وهي حث الصحابة وترغيبهم في الاتصاف بمجموعة من الصفات ليجدوا حلاوة الإيمان في قلوبهم.

- الفعل التأثيري: لقد ترك حديث النبي صلى الله عليه وسلم أثراً بالغاً في نفوس الصحابة الكرام وحملهم على الاجتهاد في العبادات والطاعات فضربوا أروع الأمثلة في حب الله وحب رسوله وحب بعضهم لبعض، ومن أمثلة ذلك أن صهيباً الرومي رضي الله عنه لما أراد الخروج إلى المدينة مهاجراً إلى الله ورسوله منعه كفار قريش حتى يتخلى عن أمواله التي جمعها في مكة، فاختار الله ورسوله وترك لهم الأموال والتحق بالنبي في المدينة فرحاً مبتهجا، قال أهل السير: "إِنَّ صُهَيْبًا حِينَ أَرَادَ الْهَجْرَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ قَالَ لَهُ كُفَّارٌ قُرَيْشِيٌّ: أَتَيْتَنَّا صُغُلُوكَ فَكُثُرَ مَا لَكَ عِنْدَنَا وَبَلَغْتَ مَا بَلَغْتَ ثُمَّ تُرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ بِنَفْسِكَ وَمَالِكَ؟ ، وَاللَّهِ لَا يَكُونُ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمْ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَعْطَيْتُكُمْ مَالِي تَخْلُون سَبِيلِي؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ: أَشْهَدُكُمْ أَنْ قَدْ جَعَلْتُ لَكُمْ مَالِي، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: رِبْحٌ صُهَيْبٌ رِبْحٌ صُهَيْبٌ"³

وقد جمع تلفظ النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث قوانين الخطاب من: إخبارية وشمول وصدق وإفادة، فأما الإخبار فكان الهدف منه إعلام النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة بما لا يعلمونه، وأما الشمول فهو إعطاء النبي الصحابة المعلومات الأكثر إفادة في الموضوع، وأما الصدق فهو صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، وأما الإفادة فهي تحقيق حلاوة الإيمان والسعادة، وهي الفائدة التي تسعى إليها البشرية جمعاء.

¹ - السيوطي، جلال الدين عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد في إعراب الحديث، تح: حسن موسى الشاعر، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، د ط، د ت، ص 47.

² - البكري، محمد علي بن محمد بن إبراهيم دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، اعتنى به: خليل مأمون شيخا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط: 4، 1425 هـ. 2005 م، ج 3، ص 246.

³ - السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تح: عمر عبد السلام سلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط: 1، 1421 هـ. 2001 م، ج 4، ص 116.

وبالعودة إلى محل الشاهد نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم ضمّن الفعل (يعود) معنى الفعل (يستقر) ليصبح معنى الكلام: ويكره أن يعود إلى الكفر مستقرًا فيه، وقد جمع النبي في هذا الأسلوب بين دالتين:

- الدلالة الأصلية الوضعية للفعل (يعود) وهي الرجوع.

- الدلالة الضمنية المستفادة من تعدية الفعل (يعود) بحرف الجر (في) وهي دلالة الاستقرار في الكفر.

وإذا أضفنا للدالتين السابقتين دلالة الحرف الجر (في) التي تفيد معنى الاحتواء والظرفية نجد المشهد الختامي للملفوظ يؤول مدلوله إلى أن هذا العائد إلى الكفر لم يكتف بالعودة إلى الكفر بل استقر فيه وانغمس فيه حتى احتواه من جميع جوانبه الاعتقادية والقولية والفعلية، وقد ذكر الزمخشري أن حالة التردد هذه بين الإيمان والكفر ثم الاستقرار في الكفر والانغماس فيه هي ديدن المنافقين الذين تكون نهايتهم وخيمة في أغلب الأحيان إلا من تداركه الله بلطفه ورحمته وعاد إلى الإسلام وحسن إسلامه " إن الذين تكرر منهم الارتداد وعُهد منهم ازدياد الكفر والإصرار عليه، يُستبعد منهم أن يُحدثوا ما يستحقون به المغفرة ويستوجبون اللطف من إيمان صحيح ثابت يرضاه الله، لأن قلوب أولئك الذين هذا ديدهم قلوبٌ قد ضُربت بالكفر ومرنت على الردّة، وكان الإيمان أهونَ شيء عندهم وأدونه، ... وليس المعنى أنهم لو أخلصوا الإيمان بعد تكرار الردّة ونصحت توبتهم لم يقبل منهم ولم يغفر لهم، لأنّ ذلك مقبول حيث هو بذلٌ للطاقة واستفراغ للوسع، ولكنه استبعاد له واستغراب، وأنه أمر لا يكاد يكون، وهكذا ترى الفاسق الذي يتوب ثم يرجع ثم يتوب ثم يرجع، لا يكاد يرجى منه الثبات، والغالب أنه يموت على شرّ حال وأسمج صورة."¹

ثالثاً: التأويل الاستدلالي

يمكننا الاستدلال على أن الفعل (يعود) قد تضمّن معنى الفعل (استقر) من خلال القرينة اللسانية التي تفيد أن الفعل (عاد) يتعدى إلى المفعول بأحد حروف الجر: (إلى) أو (على) أو (اللام) إلا أنه في الحديث جاء متعدّياً بحرف الجر (في)، الأمر الذي يُحتم علينا الحفر في بنية الملفوظ العميقة والتنقيب عن الفعل الذي تضمّن معناه في الفعل (يعود) وسمح لهذا الأخير بالعدول عن القاعدة النحوية والتعدي بحرف الجر (في)، وبعد البحث نجد الفعل (استقر) يصلح من الناحية النحوية أن يتعدّى بحرف الجر (في) كما يصلح من الناحية الدلالية أن يُضمّن في الفعل (يعود)، فتكون بنية الملفوظ العميقة في الأخير هي (ويكره أن يعود إلى الكفر مستقرًا فيه).

كما يمكننا أن ندعم هذا الاستدلال بشاهد قرآني ضمّن معنى الفعل (استقر) في الفعل (عاد)، قال الله تعالى: ^١ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ [الأعراف: 88].

قال محمد فاضل " قال الزركشي: ضمّن (تعودن) معنى لتدخلن أو لتصيرن ... وعُدّي العود بـ (في) إيماءً إلى أن الملة بمنزلة الوعاء المحيط بهم، ولعل تضمين (الثبوت والدخول) [والاستقرار] أوضح من الصيرورة، والطاغوت وضع شعيباً بين أحد أمرين: الخروج (لَنُخْرِجَنَّكَ) والمراد به المطاردة والملاحقة للقضاء عليه أو الثبوت لتثبتن في ملتنا ومراده الاندماج والدوبان، واختيار (لتعودن) بدلا من (تثبتن) إشارة إلى كراهيتهم أن يرجعوا إلى الملة الخاسرة، ملة الطاغوت التي نجاهم الله منها، وها

¹ - الزمخشري، جار الله محمود بن عمرو بن أحمد، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، مكتبة العبيكان، الرياض، ط: 1، 1418 هـ. 1998 م، ج 2، ص 164.

هو شعيب عليه السلام يستنكر ما يتهده به الطغاة من إعادته مع من آمن إلى الملة التي نبذوها ... أرايت كم أوحى الحرف (في) حين دخل على فعل لا يتعدى به فأطلق يده في توجيه دلالاته!!، إنه التضمنين وهذا من جَنِّي ثمراته.¹

وبناء على ما سبق من تحليل للنماذج الحديثة المختارة يمكن القول إن توظيف المتكلم لآلية التضمنين النحوي في كلامه يعدّ مؤشرا لمشروعية التأويل عند المتلقي الذي لا يمكنه ارتياد عملية التأويل هذه إلا إذا تسلّح بثلاث كفاءات تأويلية (كفاءة لسانية، كفاءة تداولية، كفاءة استدلالية) تسمح له في الأخير الكشف عن البعد التداولي لمضمون خطاب المتكلم ومقاصده.

4. خاتمة

في ختام هذه الورقة البحثية التي حاولت فيها الكشف عن البعد التداولي لخطابات الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال بعض الأحاديث التي وظّف فيها آلية التضمنين النحوي يمكن الركون إلى النتائج الآتية:

- إن المتتبع لأساليب العرب في كلامها يجدها قد خرقت العديد من قواعد اللغة على المستوى التركيبي وعدلت على ما أسس له النحاة من قوانين صارمة تحكم هذا المستوى، وقد مارس الكثير من مستعملي اللغة هذا الخرق في كلامهم العادي وممارسه أيضا الأدباء والشعراء في إبداعاتهم، ويمكن تفسير هذا العدول إلى إحساس المتكلم في بعض المواقف التواصلية أو المبدع في فيض دقّة شعورية مُنتجة لجنس أدبي إلى قصور قواعد النحو عن التعبير عمّا يختلج في النفس، وأما قيدُ حال دون إشباع رغبته النفسية في تبليغ قصده وإيصال غرضه للمتلقي، لذلك نجده وبكل عفوية يلجأ إلى خرق هذه القواعد والعدول عن هذه القوانين التي أرساها النحاة إشباعا لرغبته النفسية وإكمالا للمشهد الإبداعي.

- إن التزام الفكر النحوي العربي بأصول الصنعة النحوية وجعلها منطلقا لمعالجة الكثير من النصوص اللغوية الفصيحة فرضَ على النحاة ضرورة اللجوء إلى التأويل النحوي لمعالجة هذه النصوص، وتُعدّ آلية التضمنين النحوي من آليات التأويل النحوي التي لجأ إليها النحاة في محاولة منهم لإعادة صياغة النصوص اللغوية المخالفة في تركيبها للقواعد النحوية وإنتاجها إنتاجا جديدا يجعلها تتوافق في آخر الأمر مع هذه القواعد، وفي آلية التضمنين يقوم العنصر الدلالي بمعالجة الخرق اللفظي للقاعدة النحوية في محاولة للتوفيق بينها وبين النص الفصيح.

- يعد التضمنين النحوي من أبرز مظاهر التأويل النحوي التي وظّفها شراح الحديث في البحث عن معاني العديد من الأحاديث التي أشكلت عليهم في بنيتها التركيبية، فكثيرا ما يجدون في متن هذه الأحاديث أفعالا متعدية بنفسها إلى مفعولٍ به وفي مواطن أخرى يجدونها متعدية بحرف الجر، ولا يُمكن فضّ هذا الإشكال النحوي إلا بتوسُّل آلية التضمنين النحوي حيث يقوم العنصر الدلالي بمعالجة هذا الخرق اللفظي للقاعدة النحوية الملتزمة.

- البعد التداولي في حقيقته هو نتاج عملية تأويلية يُقبل عليها المتلقي باحثا عن المعاني الضمنية المستبطنّة في خطاب المرسل، إذ لا بد أن يتسلّح بثلاث كفاءات تأويلية: (كفاءة لسانية، كفاءة تداولية، كفاءة استدلالية)، وباجتماع هذه الكفاءات في العقل التحليلي للمتلقي يمكنه ارتياد عملية التأويل لأي خطاب والوصول إلى المعنى المقصود.

¹ - محمد نديم فاضل، التضمنين النحوي في القرآن الكريم، دار الزمان، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط:1، 1426 هـ - 2005م، ج 2، ص 113.

- لقد وظّف النبي صلى الله عليه وسلم آلية التضمنين النحوي في الأحاديث السابقة كأفعالٍ كلاميةٍ كاملةٍ لأغراض ومقاصد تداولية تركت أفعالا تأثيرية واضحة في حياة الصحابة رضوان الله عنهم، فلم تكن اللغة في البيان النبوي مجرد رموزٍ للتعبير عن الفكر كما يتصورها الاتجاه التوليدي التحويلي، ولا أداة للتواصل كما يتصورها التيار الوظيفي بل كانت أداةً عمليةً غيّرت عالم الصحابة وصنعت أحداثه وأثّرت فيه، وهو جوهر البحث في الدرس اللساني التداولي.

5. قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم
- 1- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط:4، 1425 هـ. 2004 م.
- 2- البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، صحيح البخاري، ، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط:1، 1422 هـ.
- 3- أبو البقاء الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني الكلبيات، تح: عدنان درويش ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط:2، 1419 هـ _ 1998 م.
- 4- البكري، محمد علي بن محمد بن إبراهيم دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، اعتنى به: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط:4، 1425 هـ. 2005 م.
- 5- الجزيري، عبد الرحمن بن محمد عوض الفقه على المذاهب الأربعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 2، 1424 هـ.
- 6- ابن جني، أبو الفتح عثمان عثمان الخصائص، تح: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، دط، د ت.
- 7- حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط:2، 2014 م.
- 8- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي، تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:1، 1413 هـ. 1993 م.
- 9- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن، مفاتيح الغيب، د ت، دار الفكر، لبنان، بيروت، ط:1، 1401 هـ - 1981 م.
- 10- الزركشي، بدر الدين البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط:1، 1376 هـ - 1957 م.
- 11- الزمخشري، جار الله محمود بن عمرو بن أحمد، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، مكتبة العبيكان، الرياض، ط:1، 1418 هـ. 1998 م.
- 12- ابن سراج، أبو بكر محمد بن السّري بن سهل، الأصول في النحو، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة.
- 13- السامرائي، إبراهيم بن أحمد الراشد، فقه اللغة المقارن، دار العلم للملايين، بيروت، ط:3، 1983 م.
- 14- السامرائي، فاضل صالح ، معاني النحو، دار الفكر، عمان الأردن، ط:1، 1420 هـ - 2000 م.
- 15- السندي، نور الدين محمد بن عبد الهادي، حاشية السندي على سنن النسائي، مكتبة المطبوعات الإسلامية حلب، ط: 2، 1406 هـ.
- 16- السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تح: عمر عبد السلام سلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط:1، 1421 هـ. 2001 م.
- 17- السيوطي، جلال الدين ، الإتقان في علوم القرآن، تح: مركز الدراسات القرآنية، المملكة العربية السعودية، 1426 هـ.
- 18- السيوطي، جلال الدين، تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1389 هـ. 1969

- 19- جلال الدين السيوطي، عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد في إعراب الحديث، تح: حسن موسى الشاعر، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، د ط، د ت.
- 20- الطياليسي، سليمان بن داود مسند أبي داود الطياليسي، تح: محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، ط: 1، 1419 هـ . 1999 م.
- 21- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، الاستذكار، تح: سالم محمد عطا ومحمد علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1، 1421 هـ.
- 22- عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، مصر، ط: 3، د ت.
- 23- القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، المطبعة الكبرى، مصر، ط: 7، 1323 هـ.
- 24- ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بدائع الفوائد، تح: علي بن محمد العمران، إشراف بكر أبو زيد، دار علم الفوائد، د ط، د ت.
- 25- الكرمانى، شمس الدين محمد بن علي، الكواكب الدار لشرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط: 2، 1401 هـ.
- 26- المبرد، محمد بن يزيد الكامل في اللغة والأدب، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط: 3، 1417 هـ - 1997.
- 27- محمد نديم فاضل، التضمن النحوي في القرآن الكريم، دار الزمان، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط: 1، 1426 هـ - 2005 م.
- 28- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د ط، د ت.
- 29- الميروقي، محمد بن فتوح تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، تح: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، مكتبة السنة - القاهرة - مصر، ط: 1، 1415 هـ . 1995 م.
- 30- ابن هشام الأنصاري، عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ، تح: عبد اللطيف محمد الخطيب، دار التراث العربي، بيروت، ط: 1، 1423 هـ.